مجلة التراث

ELT -R

Special Edition

مؤتمر اسطنبول الدولي الثاني للعلوم الإنسانية والطبيعية

Available online at: http://www.asjp.cerist.dz
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/323

المآخذ على د. عبد الله الغذامي في نقده الثقافي لشعر أبي تمام

أ.د.نجم عبد علي رئيس، أ.د. مجيد خير الله راهي.

كلية التربية للعلوم الإنسانية / جامعة واسط – جمهورية العراق.

مجلة التراث، عدد خاص بأشغال مؤتمر اسطنبول الدولي الثاني للعلوم الإنسانية والطبيعية.

لتوثيق هذا المقال:

نجم عبد علي رئيس، مجيد خير الله راهي، المآخذ على د. عبد الله الغذامي في نقده الثقافي لشعر أبي تمام، **مجلة التراث**، عدد خاص بأشغال مؤتمر اسطنبول الدولي الثاني للعلوم الإنسانية والطبيعية المنعقد بـ تركيا -إسطنبول 25-27 /2019/09م، ص59، ص73.

الملخص:

من المآخذ التي تؤخذ على د.عبد الله الغذامي في نقده شـــــــــعر أبي تمام اتهامه الشاعر بالرجعية التي أراد بها رجوع الشاعر بلغة الشعر إلى لغة الأوائل خلافاً لما أجمع عليه النقاد من مغايرته لهم ، والاتهام الثاني اتهامه الشاعر بالمديح المتلبس بالهجاء ببيت اختاره من قصيدة في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإيادي .

الكلمات المفتاحية :

المآخذ . الغذامي . ابو تمام .

Abstract:

In his criticism of Abu Tammam poetry, Dr Abdullah Al-Ghathami said that the poet Abu Tammam imitates the ignorant poets and a ccused the poet of praising him in a kind of satire especially in his poem praising the judge Ahmed Ibn Abi Dawaod and our mission in this research of stand on the
truth of his accusation.

key words:

Shames. AL-Ghathami ,Abotammam.

اتّهام أبي تمام بالرجعيّة أ

تحت عنوان { العمى الثقافي أبو تمّام بوصفه شاعراً رجعيّاً } في كتابه {النقد الثقافي دراسة في الأنساق الثقافية } بدا الغذامي غير مؤمن بحداثة أبي تمّام الشعريّة ، غلى الرغم من تيقّنه بمكانته بين الحداثيين من النقّاد قدماء ومعاصرين منطلقاً من تصوّره لتحكّم النسق المتسلّط وهيمنته على شعر الشاعر : " وهذا ما دفعه إلى أن يتساءل في قلق وحَيرة ، ليمهّد للمعارضة والرفض "(1) ، .يقول الغذامي : " لعلّ من أبرز علامات النسق أن تختلط الأحكام الثقافية ليس لدى المؤسّسة الثقافية الرسمية ، بل لدى ممثّلي التجديد والتحديث حتّى لتأتي تطلّعاتهم التجديدية على صورة مشوّهة ومحدودة المطمح ، ممّا يعني أنّ النسق يصل في هيمنته حدّاً لا يتحكّم فيه بالخطاب الرسمي فحسب بل بالخطاب المعارض أيضاً . وهذا ما نجده في حالة أبي تمّام الذي صار مثالاً للحداثة ورمزاً من رموزها واتّخذه السيّاب نبراساً له ونموذجاً للقدوة ، وشاع ذلك بين الحداثيين من نقّاد ومبدعين ، ولكن أيّ حداثيّ هذا ؟ " (2)، وهو اختلاط لا وجود له إلا في ذهن الغذامي نفسه الذي اختلطت لديه المفاهيم أكثر من مرّة ، فيجمع بين الرجعي وهو مصطلح أيديولوجي والحداثة وهي مصطلح نقدي ، " وتحفّظنا لا ينبثق من الأحكام بذاتها ، وإنّما من وضع الرجعية نقيضاً للحداثة، وهذا التعارض محفوف بأخطار ينبغي للنقد تجنّبها ، فالرجعيّة في النسق الثقافي ... تهمة أيدلوجيّة وليس لها امتثالاً (كذا) للنسق الشعري الذي رسّخه الأوائل ، وقد تمرّد عليه أبو تمّام " (3) ، والغذاميّ يريد بالرجعيّ التقليديّ الذي ساير الأوائل من الشعراء ، ونسي أنّ مُحبّي الشاعر ومُبغضيه قد أجمعوا على مغايرته لهم ، فقد : " عُهد عن أبي تمّام أنّه ظلّ مأخوذاً بضرورة الإسهام في بناء التغاير ومخالفة النمط المأنوس " (4) ؛ ولذا فإنّ شاعريّته تستند إلى إحداث " خلخلة في الحسّاسية النقدية ... أو خلخلة في بنية العقل النقدي والتصوّر الثقافي " (5) . وقد اتّفق معظم النقّاد على مغايرة لغة أبي تمام للغة من سبقه من الشعراء واختلفت تأويلاتهم لها فمنهم من جعله منبتّاً عن اللغة القديمة ومؤسّساً للغة شعرية جديدة ، ومنهم من جعله امتداداً لها ، لكنّه امتداد تطوير وإضافة لا التزام ومحاكاة (6) . والغريب أنّ الغذامي يقرّ ويعترف بحداثة أبي تمّام إذ يقول : " نجد اسم أبي تمّام قارّاً في الضمير الثقافي على أنّه رمز حداثي ، فجّر طاقات اللغة ، وواجه الأعراف ، وحطّم عمود الأوائل ، وهو رأي يشترك في قوله المحافظون والحداثيّون من الآمدي والمرزوقي إلى الصولي في القديم ، والسيّاب وأدونيس في الحديث " (7) ، ومع كلّ هذا الإقرار والاعتراف فهو يتّهم الجميع بالعمى الثقافي ، وبسبب هذا العمى ؛ فإنّهم لم يتمكّنوا من اكتشاف زيف (رجعيّة) أبي تمّام ، إذ ظلّوا مأسورين في دائرة الجماليات التي أخفت العيوب النسقية حسب زعمه .

وأغرب من ذلك أنّ حكم الغذامي على أبي تمّام بالرجعية كان انسياقاً وراء ملاحظة عابرة عارضة للقاضي الجرجاني كان قد وجدها . على ندرتها . في بعض ألفاظ أبي تمام الغريبة ، إذ قال القاضي الجرجاني إنّ أبا تمّام : " حاول من بين المحدثين الاقتداء بالأوائل " (8).، وهي ملاحظة لا تستحق الوقوف عندها ، إذ ما قيمة أن تأتي لفظة أو لفظتين غريبتين على مساحة قصيدة تقع في أربعين أو خمسين بيتاً ؟ كي تكون هذه الملاحظة كافية للقول إنّ أبا تمّام عاد بالشعر إلى طريقة الأوائل ، فضلاً عن أنّ بين عصر أبي تمّام والقاضي الجرجانيّ ما يقرب من مئة وستين عاماً ، ولا بدّ من أن تكون اللغة قد قطعت شوطاً في تطوّرها عبر الزمن ، ولا بدّ للذوق الأدبيّ أن يكون قد بلغ مرحلة من التهذيب والبحث عن جماليات الألفاظ مبلغه ، على أنّ ملاحظة القاضي الجرجانيّ هذه

جاءت في سياق حديثه عن التفاوت في شعر الشاعر في القصيدة الواحدة ، وهو أمر شائع في شعر الشعراء جميعاً : " ولم يكن الحديث عن التفاوت حديثاً عن عيب وقع فيه الشاعر ، يستحقّ من أجله التأخير بقدر ما كان إقراراً لطبيعة الشعر الصادر عن إنسان " (9) . وقد وضع الغذامي النقد في سياق قهريّ يتماشى وأطروحته الذاتية من خلال إخضاع النصوص لتصورات مُسبقة وأفكار راح يبحث عمّا يؤيّدها في كتب التراث والشعر والسرد وتعامل معها بحرفيّة جامدة جدّاً أدّت إلى نصوصية قاتلة وجامدة (10) ، أوهمته بتعميمات بدت في كثير من الأحيان متناقضة .

وكان من النقّاد القدماء من رفض حداثة أبي تمّام ؛ لأنّ الشاعر رفض تقليد الأوائل ، ومن هؤلاء الآمدي وانساق وراء عمود الشعر المتمثّل بخلاصة النقد الذي استقى قواعده من شعر الأوائل ، حتّى قال في أبي تمّام : " شعره لا يُشبه شعر الأوائل ولا على طريقتهم ؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة والمعاني المولّدة " (11) ، وهذا إقرار بحداثة أبي تمّام التي لا تتوافق مع طريقة الأوائل، ويقول الآمدي على لسان صاحب أبي تمّام : " فأبو تمّام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أوّلاً وإماماً متبوعاً ، وشُهر به ، حتّى قيل مذهب أبي تمّام ، وطريقة أبي تمّام ، وسلك الناس نهجه واقتفوا أثره " (12) ، ولم يستند الغذامي إلى رأي الآمدي : " فلربّما صدر هذا الفعل النقدي عن الغذامي ، كحيلة من حيل النسق حتّى يثبت للقارئ مصداقيّته وموضوعيّته في حكمه النقدي على حداثة أبي تمّام وعدم تعصّبه عليه " (13) ؛ لا لشيء إلا لأنّ الآمدي وصف شعره بأنّه لا يُشبه شعر (الأوائل) ، ممّا يتعارض مع ما استند إليه الغذامي في وصف القاضي الجرجاني في ملاحظته العابرة نلك بتقليده الأوائل في استعمال بعض الألفاظ الغريبة.

ولعلّ من الغريب أن ينتهي الغذامي إلى نهاية مفادها : " إنّ حداثية أبي تمّام حداثة شكليّة " (14) ! فكيف تكون حداثته شكلية وهو المتّهم باستعمال الغريب في ألفاظه على طريقة الأوائل ؟! بل الذي عليه النقّاد قدماء ومُحدثين أنّه كان يتعمّق في المعاني:" ويدرك أبو تمام أنّ الشكل وحده لا يُشكّل جديداً خالصاً ؛ ولذلك فإنّه يبيّن أنّ قصيدته ذات معانٍ مبتكرة عذراء ، وذات دلالات جديدة : (من الكامل)

أمّا المعانِي فهْيَ أبكارٌ إذا نُصّتْ ولكنّ القوافِي عُونُ

ولا يهتمّ أبو تمّام بالشكل والمعنى وحسب ، وإنّما يهتمّ أيضاً بالسياق العامّ ووحدة القصيدة " (15).

ويأتي المستشرق غرونباوم ليساير القاضي الجرجاني في تلك الملاحظة اليتيمة في شعر أبي تمّام يقول الغذامي : " لقد أشار غرنباوم إلى رجعيّة أبي تمّام وذكر أنّه قاد حركة رجعيّة في الشعر العربي ، وهو يهدف هنا إلى ما كان يحدث في لغة الشعر مع مطلع العصر العبّاسي ، حيث شرع بشّار بن بُرد في تقريب لغة الشعر إلى لغة الواقع ، وتبعه آخرون من مثل أبي نُواس والسيد الحِمْيري وأبي العتاهية ، غير أنّ أبا تمّام أعاد لغة الشعر إلى نمطها الأوّل " (16) . وليس الأمر كما زعم غرونباوم وناصره الغذامي إذ لا يصحّ أن يجمع الناقد كلّ ما يصادفه من شعر في اتجاه محدّد ، فشاعر كأبي تمّام : " اختار على نحو قصدي واعٍ مذهباً فنّياً يقوم على تكثيف استخدام بعض السمات الفنّية للشعر القديم (البديع) ، وتعقيد بنية النص ، فضلاً عن التوغّل قي استخدام لغة الصحراء ... إلا أنّه يقدّم أحياناً تحت تأثير العضويّة الإبداعية نمطاً شعريّاً يغلب عليه الوضوح والبساطة " (17) ، ولنا فيما يزعمه الغذامي مسايراً في

ذلك المستشرق غرونباوم في لغة شعر أبي تمّام ما به حاجة إلى التصويب : " فمعظم هؤلاء : بشّار ، السيّد (الحميريّ) ، أبو نُواس ، إنّما كانوا يفعلون ذلك في أشعارهم الهزليّة التي كانت تعبّر عن حياتهم اللاهية الماجنة ، أمّا في الحفل بين السماطين ، فإنّهم كانوا أكثر بداوةً في لغتهم من البدو ، وأكثر فصاحة من الأعراب الفصحاء "(18) ، ومن هنا نفهم أن شعر أبي تمّام لم تكن به عودة إلى القديم .

ويحاول الغذامي بذرائع شتّى إثبات (رجعيّة) أبي تمّام فيشير إلى مقولتين لأبي تمّام ، إذ يقول في الأولى قولاً ظاهره التبجيل لحداثة أبي تمّام مُبطناً تهكّمه وسخريته منه ومن حداثته ، يقول الغذامي : " ظهر أبو تمّام أوّل ما ظهر وكأنّه هو المثقّف المنتظر ، شابّ يحمل رغبة جامحة للتجديد لمواجهة الأعراف التقليدية ، وبدا عليه أنّه قد برم من سلطة النسق ، فاعترض على مقولة (ما ترك الأولُ للآخر شيئاً) ، وراح يُعلن الاعتراض في كلمة ظاهرها مثير وهي قوله (كم تركَ الأوّلُ للآخر) ، وهي كلمة كم ستكون ذات دلالة تعبيرية لو صدقت ، غير أنّ الناظر في سياق الكلمة سيجد أنّ الاعتراض على النسق هو في المزيد من تعزيزه " (19). ويبدو أنّ تهمة الرجعيّة التي ألصقها الغذامي بأبي تمّام وحاول اصطناعها موغلاً بتفسير مقولة الشاعر في بيته الشعري من السريع.

يقولُ مَن تقرعُ أسماعَهُ كم تركَ الأوّلُ للآخِرِ (20)

بقوله إنّ : " الآخر هو أبو تمّام تحديداً ، وبما أنّه يقصد ذاته ؛ فإنّ حركة النسق تكتمل بكلّ شروطها ، من حيث إنّ الذات تتمركز حول ذاتيّتها مُلغية الآخر ، القديم الحديث معاً ، وليست هي إذن مقولة تضادّ النسق ، بقدر ما هي أداة تعزيز النسق وتصدر عنه " (21) . وهكذا يوقع الغذامي نفسه في تناقض صريح ، فإذا صدّقنا بما يقوله الغذامي من أنّ الشاعر ألغى القديم ، فيكون في مثل هذا الحال ليس بالوصف الذي وصفه الغذامي بـ (الرجعيّ) لأنّ هذا الوصف يعود إلى تقليده الأوائل ، والحال أنّ الشاعر لم يكن يقصد بقوله : " الآخر ذاته ؛ أي التمركز حول الذات ، وإلغاء القديم والحديث معاً ، كما فسّر الغذامي ، بل يقصد ضمير الجمع (نحن) أي الشاعر المحدث ، وإذا كان الأمر ليس كذلك فلنا أن نسأل الغذامي : من هو الأوّل الذي قابل به أبو تمّام الآخِر ؟ شاعر فرد كأبي تمّام أم شعراء لهم حرّية الإبداع ويأتون بالجديد يقصدهم أبو تمّام ! كما أنّ أبا تمّام لم يُلغِ المتلقّي وخاصّة المثقّف ، ولم يكن يُقزّمه ، ويتطاول على فهمه ، والدليل قوله : (يقولُ مَنْ تَقرعُ أسماعَهُ) ، والأوّل ترك لأبي تمّام وغيره من الشعراء المحدثين ما يضيفونه كجديد ، وإضافة الجديد لا تعني الإلغاء والإقصاء للقديم ، فأين هو تمركز الذات في هذا القول الشعري "(22) ؟ فضلاً عن أنّ : " اعتراض أبي تمّام على جملة (ما تركَ الأوّل للآخِر) يعني عدم امتثاله للنسق الفحولي الذي أطلق عليه الغذامي (النسق الأب) ، فكتب بطريقة قال النقّاد إنها مُحدثة ، فكسر بذلك نسقاً ، وأسّس لنسق جديد " (23) ، وخرج بذلك على ما سُمّي بعمود الشعر باستعاراته ومجازاته وتشبيهاته التي جاءت من ابتكاراته ، إذ : " لم يفعل الخارجون على عمود الشعر إلا شيئين : لم يكتبوا بالطريقة الماضية المعروفة ، ولم يتحدّثوا عن أشياء لم يروها رؤيةً ورؤيا " (24) ، فقد نقلوا إلينا تجاربهم التي عاشوها في ظلّ الحضارة العبّاسية.

وتأكيداً للمعنى الذي ذهب إليه أبو تمّام في قوله (كم تركَ الأوّلُ للآخِرِ) ، يقول أيضاً:(من الطويل)

ولو كان يفنَى الشعرُ أفنتْهُ ما قَرَتْ حياضُكَ منهُ في العصورِالذواهبِ

ولكنّهُ فيضُ العقولِ إذا انْجلَتْ سحائبُ منهُ أُعْقِبَتْ بسحائِبِ (25)

وحاول الغذامي في مقولة أبي تمّام الثانية التي أضحت قانوناً حداثيّاً أن يتّهم الشاعر بـ (الرجعيّة) مرة أخرى : " قال رجل : يا أبا تمّام لِما لا تقول من الشعر ما يُعرف ؟ فقال : أنت لِما لا تعرف من الشعر ما يُقال " (26) . يقول الغذامي : " وهي نتيجة الحوار مع بعض معارضيه الذين وجدوا منه ضيقاً بسماع الرأي المخالف ، وردّ عليهم ردّاً لا يختلف في نسقيّته عن مواقف المحافظين منه، ومن هنا فالمعارض والمحافظ يتصرّفان معاً حسب شروط النسق ، وفي الحالين يكون تعالي الذات ونكرانها للآخر ، وفرض رأيها هو القانون المحرّك للعلاقة بين أطراف الخطاب " (27) .

ولم يدُرْ بخلد أبي تمّام فرض السلطة والهيمنة على الآخر كما ظنّ الغذامي : " وفي قصد أبي تمّام . على ما يبدو . توجيه المسؤولية للمتلقّي ، كما وجّهها إليه ! فالتسلّط كان من المتلقّي ؛ ذلك المحافظ الذي يريد إخضاع أبي تمّام إلى شروطه : لِمَ لا تقول ما يُفهم؟ ولم يكن على أبي تمّام ... إلا توعيته بمسؤولية الفهم : لِما لا تفهمان ما يُقال ؟ والشاعر يقول إبداعه وللنصّ سلطته ، وما على المتلقّي إلا أن يفهم ، وليس للشاعر دخل في شرح نصّه وتفهيمه ، علماً بأنّ النصّ الذي يكتبه أبو تمّام هو للخاصّة المثقّفين وليس للعامّة " (28) . وإذا كان قد تمّ تجريد الشعر من جماليّاته وفقاً لمتطلّبات النقد الثقافي التي جاء بها الغذامي: " فلن نُدهش أن يتحوّل شاعر مجدّد مثل أبي تمّام في نظر النقد الثقافي الغذامي إلى شاعر (رجعي) وتتحوّل حداثته إلى (حداثة رجعيّة) !! ولذلك ليس من المستغرب أن يسخر الغذامي من مقولات نقديّة استطاع بها أبو تمّام أن يستبق ما توصّلت إليه أحدث النظريّات النقديّة المعاصرة " (29) من مثل قوله (كم تركَ الأوّلُ للآخِرِ) و (لِمَ لا تفهم ما يُقال).

ويحاول الغذامي بطرائق شتّى إثبات (رجعيّة) أبي تمام ، مستنداً إلى تلك الوصيّة التي أوصى بها أبو تمّام البحتري، يقول الغذامي:" وفي حديثه التوجيهي للبحتري كان يُعطي نصائح للشاعر المتدرّب كيف يمدح، حتّى لكأنّه يفصّل ثياباً حسب تغيّر الأجساد . ولا ينسى أن يوجّه تلميذه المريد إلى أن يجعل شعر الأوّلين هو النموذج المحتذى، فما استحسنوه قصده ، وما كرهوه تجنّبه " (30) . على أنّ هذه الوصيّة التي أشار إليها الغذامي لا تعدّ حجة دامغة لـ (رجعيّته) ، إذ : " لا تنهض دليلاً على نقض ذلك (حداثته) ، فهي توجيهات عامّة موجّهة لشاعر في حداثة سنّه ، وشائعة في الأدبيّات القديمة " (31) . بل حثّ النقّاد القدماء الشعراء عليها من أجل صقل مواهبهم الشعريّة، وإبراز ما لديهم من طاقات شعريّة خلّاقة (32) . لقد قادت الحماسة التي تجور على الموضوعية الغذامي إلى أن يكون داعية : " فجعلته يغفل كلّ الحجج التي يُمكن أن تطرح على الضدّ من منهجه ، وركّز جهده فقط على الحجج التي يرى بأنّها يُمكن أن تكون عوناً له " (33) ، وإذا كان لا بدّ للشاعر المجدّد من تعلّق بتراثه بطريقة أو أخرى فهنا يصحّ القول: " إنّ أبا تمّام قد استبطن التراث ووعاه ، ولكنّه لم يستسلم له في موقف الخاضع المستعبَد ، بقدر ما طوّعه لطبيعة ثقافته ، ولنمط تكوينه العقلي، فاقتحم مجال التصوير والصياغة اللفظية ليعكس من خلالها معاً ما أراد من نزوع ثقافته ومصادرها العديدة

والمتنوعة " (34) ؛ فليست الحداثة اجتثاثاً كلّياً لما قبلها ، إنّما هي محاولة لتوجيه الثقافة السائدة وجهة جديدة ، تؤمن بالتطوّر والإضافة والتعدد .

ب . اتّهام أبي تمام بـ (النسق المُضمَر) في المديح المتلبّس بالهجاء

ينطلق الغذامي في محاولته إلغاء حداثة أبي تمّام من منطلق آخر ، وهو أنّ مديح الشاعر يُبطن هجاء بكلّ قبحيّاته لممدوحه : الكذب ، الظلم ، الضغط المتمثّل في تهديد الممدوح لأجل التكسّب ، الذاتيّة ، الأنانيّة والتعالي ، لدرجة أنّه قال معارضاً إيّاه بذي الرمّة وحاطّاً من شعريّته ، يقول الغذامي : " تعتمد شعريّة أبي تمّام على (النسق المضمر) ، ويقوم المديح المتلبّس بالهجاء كأساس شعري إبداعي لديه ، ولقد أعلن عن غايته الذاتيّة الانتفاعيّة ، ممّايجعله واحداً من هؤلاء ، ولا يختلف عن السائد الرائج في زمانه ، بل إنّه لم يبلغ مبلغ ذي الرمّة الذي تجنّب فنون السوق ذات الرواج الفحوليّ ، المدح والهجاء والفخر ، ممّا عرّضه للعقاب النسقيّ فقلّلوا من فحولته ... أمّا أبو تمّام فلكي يكون واحداً من الفحول فإنّه يسلك مسالكهم " (35). ولا يكتفي الغذامي بمقارنة أبي تمّام بذي الرمّة ساخراً من شعريّة الأوّل بل قال مضيفاً إنّ أبا تمّام : " أعلن بصراحة فحوليّة تامّة أنّه إذا ضاقت عليه أبواب المديح لجأ للكذب من أجل أن يُنجز مهمّته حسب شروط السوق " (36) . والسؤال الذي يُمكن أن يوجّه إلى الغذامي هو : كيف ومتى ضاقت أبواب المديح بوجه شاعر في وزن أبي تمّام ، فلو لم ينظم إلا قصيدته الشهيرة البائيّة في مدح المعتصم العباسي ووصف حريق عمورية ، لكفاه فخراً (37) ، بل وله من روائع القصائد ما لا نجد عند الكثير من الشعراء . .

وها هو الغذامي يمثّل للمدح المبطّن بالهجاء بواحدة من قصائد الشاعر في مدح القاضي أحمد بن أبي دؤاد الإياديّ ، مختاراً منها هذه الأبيات : (من الطويل)

ينالُ الفتى من عيشِهِ وهو جاهلٌ ويُكدي الفتى في دهرِهِ وهوعالِمُ

ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكْنَ إذنْ من جهلِهِنّ البهائمُ

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدراهمُ (38)

ليتّخذ منها سهاماً يصوّبها تجاه الشاعر: " يقول هذه الأبيات في مستهلّ مديحه ، بعد أن تخلّص من مقدّمته التقليديّة في غزل لا حبَّ فيه ، ولا غاية سوى اتّباع الأعراف الفحوليّة الكاذبة ، والتي ليس التشبيب فيها سوى جسر للعبور ليس له من حقيقة " (39) ، وما ذهب إليه الغذامي مردود من عدة أوجه ، فأمّا اتّهامه بأنّ المقدّمة تقليديّة فهو محض رأي لا يثبت عند التدقيق ، فقد اختار الغذامي هذه الأبيات مُسقطاً منها بيتاً يأتي تسلسله قبل البيت الأخير، وهو قوله :

جزى اللهُ كفّاً ملؤُها من سعادةٍ سرَتْ في هلاكِ المالِ والمالُ نائمُ (40)

وتغييب هذا البيت يؤثّر كثيراً في المعنى العام الذي يتضمّنه سياق الأبيات ، فهو يشكّل حلقة في سلسلة متّصلة تدرّجت معها بنية المعنى حتّى انتهت إلى غايتها ، فالقصيدة تبتدئ بمقدّمة غزليّة تجتاحُها معاني النأي والبعد تتضامُّ معاً في تشكيل بنية الفراق، وهي بنية غير منقطعة ، بل تتّصل بما يتلوها اتّصالاً معنويّاً " (41) ، فقد جاء في مقدّمة القصيدة :

أ لمْ يأْنِ أنْ تُروَى الظمـاءُ الحوائمُ وأنْ ينظمَ الشملَ المشِتَّ ناظمُ

لَئِنْ أرقأَ الدمعَ الغيورُ وقد جرَى لقد رويَتْ منه خدودٌ نواعـم

لقد كانَ ينسَى عهدَ ظمياءَ باللوَى ولكنْ أمَلّتْهُ عليهِ الحمـائمُ

بعثْنَ الهوَى في قلبِ مَن ليسَ هائماً فقُلْ في فؤادٍ رُعْنَهُ وهْوَ هائمُ (42)

"فالمرأة ضرب من رزق الله للإنسان ، وفراقها شبيه بانقطاع الرزق أو توقّفه ، والانقطاع بمعنى من المعاني صيرورة وتحوّل ، أي انتقال من يد إلى يد أخرى " (43) . وبهذا تتجلّى في هذه المقدّمة الغزليّة نسقيّة مُضمرَة تمثّلها ثنائيّة الساعي الهائم في حبّه (الأنا الشاعر) الذي لا يحصل على طائل من حبّه ، والقاعد غير الهائم الذي يحظى بحبها ، وتتّصل هذه الثنائيّة اتّصالاً وثيقاً بالأبيات التي اختارها الغذامي ، فهي ليست منفصلة عنها كما زعم ، على أنَّ الرزق الذي قد يؤرِّق الإنسان ويُقلقه قد يؤثّر على سلوكه : " والحكمة عند أبي تمّام تقوم على نزع هذا القلق ، من خلال التأكيد على أنَّه أمر مقسوم ومقدَّر عند الله لعباده ، ولا دخلَ للإنسان في تقديره، كما أنَّ هذا الرزق لا يُتحصَّل عليه بالعلم والمعرفة " (44) ، إذ إنَّ هذا القلق لا فائدة تُجنى منه .

ويواصل الغذامي تحليل الأبيات السابقة التي اختارها من وجهة نظره قسراً فيقول : " وفي هذه الأبيات يضع أبو تمّام معادلة النصِّ المدائحيّ التي تضع شخصيّتين في مناقضة منطقيّة ، أحدهما يملك العقل ، والآخر يملك المال ، على أنَّ مالك المال لا يملك عقلاً بينما صاحب العقل لا يملك مالاً ، ويقول إنَّ المال نقيض العقل ، ولو كان العقل شرطاً في الغنى لهلكت البهائم إذن ، وهذا معناه أنَّك أيُّها الممدوح أشبه ما تكون بالبهيمة " (45). وأخطر ما في هذا الاستنتاج الذي توصّل إليه الغذامي أنَّ الشاعر شبّه ممدوحه قاضي القضاة بالبهيمة : لأنَّه لا يملك عقلاً !! ولا ندري كيف افترض الغذامي أنَّ قاضي الإمبراطوريّة العباسيّة الشهير لا يملك عقلاً !! إنَّ الغذامي في كلِّ نقده الثقافي يفترض افتراضاً من عنده ثمَّ يبني عليه حكماً ، وواضح أنَّ هذه الثنائيَّة لا يُمكن حصرها بثنائيّة (الممدوح/الشاعر) التي تنبثق عنها الثنائيّة النسقيّة المضمرَة (المهجو/الشاعر) ، إنْ تنبّهْنا على الصلة الوثيقة بين المقدّمة الغزليّة وبيتي الشاعر :

ينـالُ الفتى من عيشِه وهوجـاهلٌ ويُكدي الفتى من دهرِهِ وهوعا لمُ

ولو كانتِ الأرزاقُ تجري على الحِجا هلكْنَ إذنْ من جهلهنَّ البهائمُ (46)

"ويضمّ هذان البيتان ثنائيّة (الجهل/العلم) ، ودلالة الجهل تحلّها دلالات أخر ، فالجهل كسل ، والجهل قعود ، والجهل سكون، إنّه كلُّ شيء يضادّ الحركة والعمل والنشاط . وعلى المنوال نفسه تقوم دلالة العلم ، فالعلم نشاط ، والعلم قيام ، والعلم حركة،

فتكون المقابلة بين سكون وفعل تتمخّض عنهما مفارقة دنيويّة غريبة ، يحصل فيها الساكن ما لم يسعَ إليه ، ويجتهد الفاعل في سعيه إلى حيثُ لا شيء " (47). وفي هذا المعنى يقول ابن المقفَّع : " وليس كسائر أمور الدنيا وسلطانها ومالها وزينتها التي قد يُدرك منها المتواني ما يفوت المثابر ، ويُصيب منها العاجز ما يُخطئ الحازم " (48) ، ألم يقل المتنبي (من الكامل):

تصفو الحياةُ لجاهلٍ أو غافلٍ عمّا مضَى فيها وما يُتوقَّعُ

ولِمَنْ يُغالطُ في الحقائقِ نفسَهُ ويسومُها طلبَ المحالِ فتطمَعُ (49)

وخلافاً لما ادّعاه الغذامي من تلبّس المديح بالهجاء : " فقد عبَّر الشاعر خلال ثنائيّة مركزيّة عن مشكلات تمسّ الوجود الإنساني، فجاءت ثنائيّة (الجهل/العلم) دالّة على قسمة حقيقيّة غير متخيّلة ، أسندها بدلالات مؤكّدة (العيش/الدهر) العيش صفة ملازمة للجاهل ... وهي طلبته ومبتغاه ، ولا يُقصد وراءها شيء أبعد من ذلك ، غير أنَّ الدهر ينال من العالم ، فيجعله مُكْدياً ، إنَّه يضع الجاهل في مقابل العيش ، ويضع العالم في مقابل الدهر ، والدهر مصائب ونوازل وهموم ؛ الجاهل لا يصارع الدهر ، ولا يصرعه الدهر . العالم يُغالب للدهر مقاوم له ، لكنَّه في النهاية مغلوب "(50) .

ولعل ما أشار إليه الشاعر يعدُّ من مفارقات الحياة التي تجري على نسق غير مفهوم : "وهو أمر بقدر ما يُعبِّر عن حالة من الرضا والقناعة التي لا سبيل أمام المرء إلّا قبولها حين تصل كلُّ جهوده ومحاولاته في هذا الجانب إلى أفق مسدود ؛ فإنَّه يكشف من وجه آخر عن حالة من الرفض والاحتجاج " (51) ، وبهذا تكون هذه النهاية المحزنة التي بعثت الأسى في نفس الشاعر قد ألجأته إلى أن يقارن بين الإنسان والحيوان : " فيصنع دلالةً جديدةً (الجاهل = البهائم) وهي دلالة مشابهة لا من حيثُ الخَلْق أو الخُلُق ، بل من ناحية السعي والحركة ، فالجاهل أشكل الحيوان بتغييب عقله ...وأصبح لا تحرّكه إلا غرائز وجوديّة تدفعه إلى المقارعة والمغالبة لتحصيل عيشه حسب ، تماماً كما تدفع الغرائز الحيوان نحو البقاء " (52) ، فضلاً عن أنّ : " الحظوظ في الدنيا تجري بقدر لا باستحقاق ، فالجاهل قد يستغني على جهله ، والعالِم قد يُكْدي ويفتقر على أنَّه عالم ، ولو أنَّ الآرزاق جارية على ما يُوجبه العقل والحِجَى من الاستحقاق لها لهلكت البهائم لجهلها " (53) وهو استنتاج منطقيّ لا سبيل لردّه والاعتراض عليه .

وبعد فالأبيات التي تحدّث عنها الغذامي تحمل مضموناً ينتقد فيه الشاعر ما آل إليه المجتمع العباسيّ من صراع بين الجاهل الخامل الذي استأثر بالمال ، ولا يكفُّ عن استعباد الناس ، والعالم العامل الذي يسعى لتحصيل رزقه فيشقى دون تحقيق هدفه ، وهذا ما لم يتنبه عليه الغذامي في نقده : " لأنَّ ممارسته النقديّة هنا أخذت نسقاً معيّناً وسعت باتّجاهه ، وأغفلت الأنساق الأخرى الدينيّة والسلطويّة التي فعلت فعلها في بنية السلوك العربيّ شعراً وممارسةً ، الأمر الذي عمل الغذامي على تجاوزه ، كي يجنّب نفسه الصدام مع الخطابين الدينيّ أولاً ، والدنيويّ (السلطويّ) ثانياً " (54) ، وقد بيّن أبو تمّام هذه المفارقة في قصيدة أخرى إذ يقول : (من الوافر)

فلو ذهبتْ سناتُ الدهرِ عنهُ وألقيَ عن مناكبِهِ الدثارُ

لَعدَّلَ قسمةَ الأرزاقِ فينا ولكنْ دهرُنا هذا حمارُ !(55)

فهذه الأبيات تتخفّى خلفها : " نقود جريئة للمجتمع العباسيّ وطريقة معاشه (كذا) آنذاك ، وهي طريقة فرضتها السلطة العباسيّة فرضاَ ، وشطرت بها الناس شطرين : أحدهما غنيٌّ كسول ، والآخر فقير نشيط ؛ فأوجد ذلك صراعاَ طبقياَ تلقّفه وعي الشاعر ، وغذّاه ، ثم عبّرعنه بهذا الروح الثوريّ الصارخ "(56) . وأمّا قول أبي تمام :

فلم يجتمعْ شرقٌ وغربٌ لقاصدٍ ولا المجدُ في كفِّ امرئٍ والدراهمُ

فهو تذكير بقيمة خلقيّة جرت عليها العرب منذ الجاهلية وحافظ عليها الإسلام وهي الكرم ، إذ : " لا يجتمع الشرف والمعالي لرجل مع إمساكه المال ؛ لأنَّ المجد يُكتسب ببذل المال وإتلاف الرغائب " (57) . وهذا يذكّرنا بالقيمة التأريخيّة للشعر فهو يسجّل هذه الأحداث ولولا شعر زهير بن أبي سُلمَى لما عرفنا هرم بن سنان والحارث بن عوف ، بعد أن دفعا ديّات القتلى من عبس وذبيان .

هوامش البحث:

1. شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، عبد السلام بالعجال ، 184 .

2. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله الغذامي ، 180 .

3. المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية ، عبد الله إبراهيم ، 552.

4. من مظاهر الانحراف الأسلوبي في عينية أبي تمام ، فتحي أبو مراد ، 2259 .

5. جدلية الخفاء والتجلي ، كمال أبو ديب ، 250 .

6. ينظر : الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب ، أدونيس ، 126/2 ، ونظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصف ،105 .

7. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 181 .

8. الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، 25 .

9. تراثنا النقدي دراسة في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني ، السيد فضل ، 89 .

10. الغذامي تهافت النقد وقراءة التنميط والقسر ، مجلة نزوى على الموقع www.nizwa.com .

11. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، الآمدي ، 6 .

12. م . ن ، . وينظر الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المرزباني ، 502 ، فقد قال إسحق الموصلي مخاطباً أبا تمام : " يا فتى ما أشدَّ ما تتّكئ على نفسك" .

13 . شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، 190

14. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 184 .

15. مقال على الشبكة ، خليل الموسى ، على الموقع :

.والبيت في شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 2/bitstream168/2>jspai>bib.univ-oeb.dz. .

16. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 180. 181

17. إشكالية الحداثة في نقد القرن الرابع الهجري ، محمد مصطفى أبو شوارب ، 32 .

18. شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، 185 .

19. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 183 .

20. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 1/ 315

21. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 183 .

22. شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، 187 .

23. النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي ، قماري ديامنته ، 119 .

24. زمن الشعر ، أدونيس ، 30 .

25. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ،1/ 118 .

26. أخبار أبي تمام ، 95 .

النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 184 . 27.

28. شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، 200 .

29. مراجعات أدبية في نقد (النقد الثقافي) ، عبد المنعم عجب الفيا ، على الموقع.www.Sudanile.com.

30. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 184 ، وينظر : زهر الآداب ، الحصري ، 121/1

31. المطابقة والاختلاف ، عبد الله إبراهيم ،552 .

32. عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، 10 .

33. الفكر النقدي وأسئلة الواقع ، د. باقر جاسم محمد ، 158 .

34. جوانب الإبداع في شعر أبي تمام د. محمد بن علي بن درع ، على الموقع

.www.eshtar.net.

35. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 185 .

36. م . ن ، 185 .

37. الشعرية العربية ، جمال الدين بن الشيخ ، 23 .

38. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية الغربية ، 186 . والأبيات في شرح ديوان أبي تمام ،

الخطيب التبريزي ، 87/2

39. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 186 .

40. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 87/2

41. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، عيسى المصري ،10 .

42. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 86/2

43. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، 10 .

44. قصيدة المدح عند أبي تمام بين الرؤية والفن ، شاكر محمد مرزوق أبو سحور ، 39 .

45. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، 187 .

46. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 87/2

47. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، 10 .

48. الأدب الصغير ، عبد الله بن المقفع ، 6

49. العَرف الطيِّب في شرح ديوان أبي الطيِّب ، الشيخ ناصيف اليازجي ، 532 .

50. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، 11 .

51. مكانة الشاعر بين قلق الدور ورغبة التجاوز قراءة في تجربة أبي تمام ، مفلح ضبعان الحويطات وعبد الله محمود إبراهيم ، 1585 .

52. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، 11 .

53. شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، الأعلم الشنتمري ، 516/1

54.. قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغذامي ، د. يوسف حامد جابر ، 14 .

55. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، 311/1

56. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، 12 .

57. شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، المرزوقي ، 31 . وينظر : شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي،87/2

مصادر ومراجع البحث

1. أخبار أبي تمام ، أبو بكر الصولي ، تحقيق خليل محمود عساكر ومحمد عبدة عزام ونظير الإسلام الهندي ، ط3 ، منشورات دار الآفاق الجديدة ، بيروت1980 .

2. الأدب الصغير ، عبد الله بن المقفع ، ضمن رسائل البلغاء ، محمد كرد علي ، ط1 ، دار الكتب العربية الكبرى البابي الحلبي ، مصر 1913 .

3. إشكالية الحداثة في نقد القرن الرابع الهجري ، محمد مصطفى أبو شوارب،دار الوفاء في الإسكندرية 2002 .

4. تراثنا النقدي دراسة في كتاب الوساطة للقاضي الجرجاني،السيد فضل،منشأة المعارف في الإسكندرية 1987 .

5. الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب ،أدونيس ، ط 8 ، دار الساقي بيروت ، 2002 .

6. جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر ، كمال أبو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت 1979 .

7. جوانب الإبداع في شعر أبي تمام ، د. محمد بن علي بن درع ، صحيفة عشتار الإلكترونية على الموقع

.www.eshtar.net

8. زمن الشعر ، أدونيس ، ط2 ، دار العودة بيروت 1978 .

9. شرح ديوان أبي تمام ، الخطيب التبريزي ، قدّم له ووضع هوامشه وفهارسه راجي الأسمر ، ط4 ، دار الكتاب العربي ، 1994 .

10. شرح ديوان أبي تمام حبيب بن أوس الطائي ، الأعلم الشنتمري ، دراسة وتحقيق الأستاذ إبراهيم نادن ، قدّم له وراجعه الدكتور محمد بنشريفة ، ط1 ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 2004 .

11. شرح مشكلات ديوان أبي تمام ، المرزوقي ، تحقيق عبد الله سليمان الجربوع ، مكتبة التراث بمكة المكرمة ، مطبعة المدني ط1 ، 1986 .

12. شعرية الثقافة لدى أبي تمام في حكم النقد العربي الحداثي ، عبد السلام بالعجال ، رسالة ماجستير ، جامعة العربي بن مهيدي . أم البواقي 2012 .

13. الشعرية العربية ، جمال الدين بن الشيخ ، ط1 ، دار توبقال للنشر ، الدار البيضاء المغرب ، 1996 .

14. العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب ، الشيخ ناصيف اليازجي ، دار القلم ، بيروت 1887 م .

15. عيار الشعر ، ابن طباطبا العلوي ، شرح وتحقيق عباس عبد الستار ، منشورات دار الكتب العلمية . بيروت د. ت .

16. الغذامي وتهافت النقد وقراءة التنميط والقسر ، مجلة نزوى على الموقع www.nizwa.com.

17. الفكر النقدي وأمثلة الواقع ، د باقر جاسم محمّد ، مركز الكتاب الأكاديميّ ، 2013 .

18. قراءة نقدية في كتاب النقد الثقافي للدكتور عبد الله الغذامي ، د. يوسف حامد جابر ، مجلة دراسات في اللغة العربية وآدابها ، جامعة تشرين اللاذقية سوريا ، ، العدد 9 ، 2012 .

19. قصيدة المدح عند أبي تمام بين الرؤية والفن ، شاكر محمد مرزوق أبو سحور ،رسالة ماجستير ، الجامعة الإسلامية في غزة ، 2014 .

20. مراجعات أدبية في نقد (النقد الثقافي) ، عبد المنعم عجب الفيا ، مجلة كتابات سودانية ، العدد 57 السنة 2009 على الموقعwww.Sudanile.com

21. المطابقة والاختلاف بحث في نقد المركزيات الثقافية ، عبد الله إبراهيم ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، 2005 .

22. مقال على الشبكة ، د. خليل الموسى ، جامعة العربي بن مهيدي بأم البواقي ،على الموقع

.bib.univ-oeb.dz>jspai>bitstream

23. مكانة الشاعر بين قلق الدور ورغبة التجاوز قراءة في تجربة أبي تمام ، مفلح ضبعان الحويطات وعبد الله محمود إبراهيم ، الجامعة الأردنية ، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية ، المجلد 42 . الملحق 2 ، 2015 .
24. من مظاهر الانحراف الأسلوبي في عينية أبي تمام ، فتحي أبو مراد ، جامعة البلقاء التطبيقية في الأردن ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، مجلد 25 (9) / 2011 . .
25. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحتري ، الآمدي ، تحقيق السيد أحمد صقر ، دار المعارف بمصر 1961 .
26. الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء ، المرزباني ، تحقيق علي محمد البجاوي ، دار النهضة ، مصر 1965 .
27. نظرية المعنى في النقد العربي ، مصطفى ناصف ، دار الأندلس بيروت ، د. ت .
28. النقد الثقافي عند عبد الله الغذامي ، قماري ديامنته ، رسالة ماجستير ، جامعة قاصدي مرباح . ورقلة . كلية الآداب واللغات ، 2013 .
29. النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية ، د. عبد الله الغذامي ، سلسلة كتابات نقدية ، تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ط1 ، القاهرة 2000 . .
30. الوساطة بين المتنبي وخصومه ، القاضي الجرجاني ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ، المكتبة العصرية ، بيروت 2006 . .
31. الوعي الشعري عند أبي تمام قراءة نسقية ، عيسى المصري ، مجلة جامعة النجاح للأبحاث ، كلية الآداب والفنون ، جامعة حائل . السعودية ، المجلد 30 (12)2016.

كل الحقوق محفوظة